

العائلة اللبنانية

محاضرة القاها في نادي الشبيبة الكاثوليكية
حضرة الشيخ سليم الدحداح

١

يلتزم لكل خطيب كاتب ان يبحث في هذا الموضوع ؛ لانه ، اذا كان من خدمة الدين او ديناً ممارساً ، يجد في العائلة مهد الكنيسة الذي يتربى فيه اعضاؤها ؛ فهي بنمو العائلة تنمو ، ولها على العائلة حنو وبها عناية لا يذكر بجانبها حنو الامهات على بنين ولا عنايةن بهم . ففي العائلة آمالها ومستقبلها . وسواء كان الخطيب كاتباً اجتماعياً ، او سياسياً ، او شاعراً ، فانه يجد في العائلة نواة المجتمع الانساني وقوته الاساسية التي يتوقف نمو المجتمع الادبي ، وازدهاره الاجتماعي والاقتصادي ، على مبلغ تهذيبها ، ومقدار ازدهارها في الآداب والاقتصاديات . في العائلة الحجر الاساسي الاول لياسة الخطيب ؛ فهو يعتقد - واعتقاده في محله - ان المبادئ السياسية لا ترسخ في البلاد ، والحياة القومية لا يقوم لها كيان ، الا اذا تربى الناس منذ الصغر على مبادئ قومية راحنة ترتبط بوحدة وطنية . ويجد الشاعر في العائلة مجالاً واسماً للمواطف والتخيلات : ففيها يجد الطفل الذين يسرق القلوب ، والفتاة العذراء التي تعلم السحر الحلال ، والوالد الذي تتسل به السلطة في مهدها ، والام التي تتكون المواطف على صدرها ، والشيخ الذي يلقي بشيخوخته امثلة الاختبار والوقار والمهابة .

فالعائلة اذاً مجموعة الدين والادب والمواطف والآمال . فما اشهى التحدث عن العائلة اللبنانية الى شبان لبنان اليوم ، ورجالها في الغد ، الذين سيكونون آباء عائلات البلاد !

ما اسمى التحدث عن العائلة اللبنانية اليكم يا شبان لبنان ، وآمال حياته الدينية والادبية والاجتماعية والسياسية .

انما يصعب عليّ ، وعلى غيري ، وعلى من كان اشدّ مهارة واختباراً ، ان يوتي هذا الموضوع حقه . لان الحياة العائلية في لبنان - والذي اقصده بكلمة لبنان انما هو القسم الجبلي منه - لا ترتبط برابطة الوحدة الوطنية في حياتها الداخلية ، بل هي مرتبطة برابطة الدين . فالقومية عندنا للدين ، وبتمدد الاديان والمذاهب تتمدد العائلة في لبنان . وقد كانت الشعوب القديمة تقوم بدينها فكان تاريخ الفرد ، وتاريخ المجموع ، لا ينفصل عن تاريخ الدين . ثم اخذت تتقلب الايام ، وتطور مدينة الامم ، الى ان استقل تاريخ الفرد وتاريخ المجموع عن تاريخ المعتقد الديني ؛ واصبح للسياسة تاريخها ، والاقتصاد والاجتماع والآداب تاريخها . نعم لم يخلُ الامر من بعض العلاقة الدينية ، انما هذه العلاقة لم تعد تؤثر في الحياة السياسية والاجتماعية تأثيراً جوهرياً . فهذا الانفصال سبقتنا اليه الامم الغربية من اوربية واميركية ، وهو ظاهر في تاريخها ، خصوصاً في الازمنة الحديثة .

اما شعوبنا الشرقية فقد كانت الى عهد قريب شعوب تقاليد لا تتحول عنها بالهين . ومن هذه التقاليد العادات التي كانت ولم ترل تحجب العائلة ، في الطبقة العالية من الشعوب الغير المسيحية ، عن الاختلاط بسائر الشعب . فهي مقيّدة بموائد وتقاليد ليس من شأنها سوى احترامها . انما لا شك بان الايام ستكفل بتعديلها وتغييرها ، شأنها في كافة الموائد والاقطار والاقوام .

قلت ان الحجاب منع عائلات الطبقة العالية من ابناؤهم تلك الطوائف عن الاختلاط . اما ابناؤهم الشعب ، اي عامة سكان القرى والفلاحين ، فلا يختلفون ولا تختلف عائلاتهم بموائدهم عن عائلات المسيحيين .

لهذا فان كلامي سيتناول العائلة المسيحية في جبل لبنان (وفيه كثير مما ينطبق تمام الانطباق على العائلة السنية او الدرزية من عامة الشعب) فايّين باسباب كيف كانت قبل النصف الاول من القرن السابق ، واوجز فيما صارت اليه بعد ذلك .

قلت ان الدين في الشرق يترج مع القومية ، فالذي يدافع عن قوميته يدافع عن دينه ، وكذلك العكس . الرجل مفطور على الدين والدفاع عن الدين ، والدفاع عن القومية ، والدفاع عن الحياة ؛ وعلى حب الحياة فطره ، وفطوره هذه اعرق من فطوره على حب الدين ، حتى لقد نجد من لا يدين ، او من يرفض أن يجاري عاطفة الدين الكامنة في قلبه ؛ انما لا نجد من لا يحب الحياة ولا يستमित في سبيل المحافظة عليها . ولا غرو فالحياة تقتدى بالحياة ؛ لذلك لما اشتد الاضطهاد على المسيحي في السمول الحصية ، ترك الارض التي تدر لبناً وعسلًا ، وفرّ بتقاليده يحملها في اخلاقه وعاداته الى حيث لا يزاحمه الا النسر والاسد ، الى مغاور الجبل وكهوفه ، الى صخور لبنان المتينة ، الى غاباته الكثيفة . فاعتصم بها يذود عما ورثه عن الآباء والجدود من تقاليد دينية هي عقائد موحاة واطواع كفسية تتملق بها ولا تنفعم عنها . وقد كان لها عنده ، وهو يرتع في مجبوحة الارض المخصبة من حاب الى دمشق ، منزلة عالية وقيمة غالية . فكيف به ، وقد خسر لاجل المحافظة عليها الحياة الفنية وبسطة العيش وسعة الرزق وسكينة الحياة بين الناس ؛ لقد صار لها في عينه قيمة مضاعفة ، وما كان يفديه في مدى العمر بحياته ، اصبح يفديه كل ساعة بحياته . فصار عيشه استشهاداً دائماً ، وموتاً متواصلاً ، وصار لديه حلواً وشهاً لذيذاً .

وكأني باللبناني ، جدنا الاول ، وقد هُرجم في ماله ودينه ، في عاداته وتقاليده ، في اعز ما لديه في الحياة . فترك العزيز من حطام الدنيا ، وتمسك بالاعز مما لا يفنى في هذه الفانية ، بل يبقى خالداً لكونه على صلة بالسما . ونجا بنفسه الى كهوف لبنان واوديته ، فمقد مع صخور هذه الجبال الشبا . عهداً على ان يكون في تقاليد الادبية والدينية ثابتاً راسخاً مثلها ، يردد عليها كلمة لها صداها في عالم الحكمة والبطولة : « الارض المخصبة التي تركتها كانت تتقلب بين القحط والحصب ، فلا تثبت على حال ولا هي كانت مطابقة لثباتي في معتدي وفي تقاليدي المقدسة . لذلك لم ابدأ من الاعتصام بك ، ايتها الصخور ، لاني اجد وجهاً للشبه بين رسوخك في هذه الاطوار الثابتة وبين الحقائق الابدية التي اتمسك بها واعيش لها ، واموت في سبيلها . »

وتعاقبت الايام وتوالى الاعوام ، فاذا باولئك اللاجئين الى صخور لبنان محافظة على دينهم واستقلالهم ، وقد صاروا عائلات على روايه وفي اوديته وعند سفوحه . ثم صاروا مزارع وقرى وقصبات . ثم صاروا مدناً . ثم صاروا امة لها تاريخها ومجدها . فاضافوا الى تقاليدهم الماضية تقليداً جديداً وهو انهم ارتضوا بشظف العيش ، وعيشة المشقة ، وموت الحياة الدنيا ، لاجل سلامة تقاليدهم المسيحية . فكان كل واحد منهم بالتجائه الى لبنان يعيش على اطواده وفي بطون اوديته ، يكفي بمناعته ويفخر بوعودة مسالكه ، كلجندي اللاجئ الى حصن حصين يفرح به لانه حماه وحى ولده من عوادي الايام .

فن تكلفه تقاليد الدين ما كلفت اللبناني المسيحي ، لا يُستغرب منه شدة حرصه عليها وعنايته بها ، بل يُستغرب منه ان لا يكون كذلك !

* * *

كان الرجل رأس المرأة في العائلة ، ومن ثم رأس العائلة كلها ، وفقاً لما نصت التعاليم الدينية . وكان الرجل يعتبر المرأة عضواً من اعضائه ويكرّمها كما يكرّم ذاته ، ولا يستطيع ان يفرقها عن ذاته ؛ لانه كان راسخاً عنده راعناً لديه انها منه ، وانها كلها له ، كما هو كله لها .

هذا كان شأن الرجل في العائلة القروية الرضيعة ، وفي العائلة الحاكمة ، وفي العائلة الوجيبة ، لا فرق في ذلك بين الشيخ والوجيه والفلاح . وتلك السلطة في العائلة كان لها صداها في المجتمع المدني ؛ فكانت سلطة الشيخ حاكم القرية او المقاطعة سلطة الوالد في عائلته ، فكان الجميع يهابونه ويمتروونه ويأتمرون بامرهم . وكانت هذه السلطة اكبر راعم في الكنيسة وخدمتها اذ كان الكاهن في الرعية الحكم المطلق اليه يرجع الشعب في الامور كلها ، وسلطته لا اعتراض عليها ولا مرد لها . وكان اعتقاد القوم في صدق الكاهن عظيماً ، حتى ان غاية التأكيد كان القول بان « ذلك الخبر سمعته من فم كاهن » .

وكذلك كانت حالة المنطقة او المقاطعة تجاه الامير حاكم البلاد . فقد كانت

البلاد عائلة كبيرة تأتمر بامر الأمير ، وتلتف حواليه ، وتقدس اشارته ، ولا تنقض عليه من ذاتها مطلقاً .

وكان لانتفاخ العائلة حول رأسها صورة في اجتماع العائلات حول حاكمها في القرية الواحدة . فانك ترى القرى القديمة مبنية رصفاً ، البيت لصق البيت ، وجميع البيوت ملتفة حول دار الشيخ او دار الحاكم او دار الوجه .

ولم تكن العائلة ، بمجموعها ولا بافرادها ، ترى في وجوب الخضوع للحاكم او في اعتبار وجهه القرية الاعتبار العميق الحقيقي . والالتقياد له ، امرأ غريباً ؛ لانها الفت تلك المعيشة في حضن العائلة منذ تفتتح عين الواحد منها على النور . هذه ميرة من ميزات العائلة الجبلية في الماضي . وكان لها ميزات اخرى عديدة تشترك فيها عائلات سائر طبقات الامة . ومن تلك الميزات العمومية المشتركة قناعة كل عائلة ، وكل فرد منها ، بالمركز الاجتماعي الذي يشغله فلا تطمح نفسه الى غيره ، بل الى تحسينه . كانت هذه القناعة في الزواج ، وفي المعاملات ، وفي انواع الاكل واللباس الى حد انه لم يكن يحظر في بال القروي ، لو وجد كذباً وصار غنياً ، ان يغير نوع ميسته في داخل بيته ، ولا ان يطمح بانتظاره الى العائلات الكريمة المريقة في القدم ، ليصاهرها ، او يقتدي بها في انواع المعيشة العائلية والاجتماعية ، الا في النادر الشاذ الذي لا يقاس عليه .

وكان من عادات العائلات وتقاليدما الاجتماعية ، عريقة كانت ام قروية وضيفة ، ان الشاب لا يسمى بنفسه بالزواج ، ولا الفتاة لذاتها . بل كان قياد امور الشاب والفتاة بامر الزواج في يد الوالدين وكبار العائلة . فكانوا يعقدون مجلساً ويتشاورون في امر زواج ابنهم عند بلوغه السن المرافق .

واذا حدث ان احد الشبان « الاجانب » عن العائلة ، اي الذين لم تسبق العادة بمصاهرة عائلتهم ، طالب يد فتاة منها . فكان « الاختيارية » يستشيرون ابا . شبان العائلة فيما اذا كانوا يمتنعون عن خطب تلك الفتاة لاحد ابناهم ، حتى لا تترب الابنة . ومتى امتنعت العائلة رُوِّجت الفتاة الى الخارج .

فكان الشاب يتكل في زواجه على عقل والديه وكبار عائلته المحافظين على التقاليد والعادات ، اكثر من اتكاله على عواطف الشباب التي قد يكون

مصدرها الحسن الخارجي والمعرفة السطحية . نعم انه كان في هذه الطريقة للزواج نواقص . ولكن الزواج كان سميماً ، لان رأس العائلة وكبارها كانوا يحكمون في اختيارهم العقل والاختيار ، وينظرون الى امكان اتفاق اخلاق الشاب مع اخلاق الفتاة ، وغير ذلك من الامور التي يكونون خبروها ، ولا قبل للشاب والشابة ان يرفاها قبل ان يجوز بها العمر الطويل . فكان اذا طالب شاب الى والده ان يخطب له فتاة «استرقها» ولم تحسن في عيني الوالد ، اجابه هذا : «طب الجرة عانتها تطلع البنت مثل امها» يشير بذلك الى عدم موافقة هذه الفتاة ، وانه عرف في امها اخلاقاً لا تتفق مع اخلاق العائلة .

لذلك كان الزواج مقدساً محترماً قل ما يقع فيه اختلاف ، او يحدث خصام ودعوى . وكانت تظل عائلات البنين عائشة مع عائلة الاب دون نزاع ، لانه لم يكن يحظر على بال الوالدين وكبار العائلة ان يزوجوا ابنة بشاب يختلفان تمام الاختلاف في العمر والعوائد والاخلاق والتربية ، ولا ان يزوجوا ربية البيوت الكريمة بمحدث النعمة .

فكانت توف ابنة الشيخ الى ابن الشيخ ، وابنة الفلاح الى ابن الفلاح . وعندما تنتقل الابنة من بيت ابيها الى بيت زوجها لا تحسب في ذلك فرقاً بينا بين معيشتها في البيتين ، فتظل الالة مملوكة على القلوب والعقول .

ومن ميزات عائلة الجيل ان الشاب ما كان يُترك بدون زواج بعد بارغه سن العشرين ، وكذلك الفتاة . ولهذا لم تكن تصد اخلاق الشاب ، ولا عسر في دينه وآدابه . وقلما كان يتعلق زواجه على المال ، فكان الشاب يتزوج بين العشرين والخامسة والعشرين من هي تقارب سنه . ويقيم معها في بيت واحد ، مع والديه واخوته واخواته ، الى ان يرزقه الله بنين وبسات ، والوثام يظل سائداً على تلك العائلة اية سيادة .

نحن لا ننسى ان يعود الماضي جيمه الينا ، ولا ان نعود الى جميع ما كان فيه . فاننا سروررون برقيتنا المصري . وانما لنا لترضى عن جميع ما في هذا العصر ، ولنا لنسى ما كان يزينا عائلتنا اللبنانية من الماسن والمفاخر التي فقدت كثيراً منها دون ان تستعيز عنها بالافضل . (للبحث صلة)